نقد نظرية قاضي عبدالجبار المعتزلي عن طوعية تعميق الإيمان الديني في الآيات القرآنية

الأستاذ المساعد الدكتور

محمد صيدي

قسم الفلسفة والحكمة الإسلامية ـ جامعة شاهد – طهران ـ إيران

m.saidiy@yahoo.com

محمد امين بهرامي

محاضر في قسم المعارف الإسلامية ـ بجامعه الطب

mabahrami136@gmail.com

احسان كردي اردكاني

أستاذ مساعد في قسم المعارف الإسلامية – اردكان ـ إيران

kordi.ehsan@gmail.com

Criticism of Qazi Abdul Jabbar Mu'tazili's Theory of Willingness of Deepening Religious Faith in Qur'anic Verses

Mahmud Seyedy

Assistant Professor, Islamic philosophy, University of Shahed, Tehran, Iran

Muhammad Amin Bahrami

Lecturer, Islamic theology, Bushher, Iran

Ehsan Kordy Ardakany

Assistant Professor, Islamic theology, University of Ardakan, Ardakan, Iran

الملخص:-

يعتقد القاضي عبد الجبار الهمداني بأن الإيمان إضافة إلى التصديق، يشمل وسائله العملية، يعني القيام بالواجبات وترك المحرمات أيضاً، و قبول الإيمان الديني من جهة و تعميقه من جهة أخرى، حيث يتم ذلك عن طريق الإرادة الإنسانية المستقلة. لذلك ومن وجهة نظر هذا المفكر المعتزلي فإن الإيمان الديني أمر يمكن تعميقه، ويمكن للمرء أن يعمّقه بإرادته. يقدّم عبد الجبار العديد من الحجج القرآنية لدعم نظريته التي يمكن انتقادها بعدة طرق.

المغالطة المشتركة لجميع هذه الحجج، هي استقراؤها غير المكتمل للآيات القرآنية. لأنه يستشهد فقط بمجموعة من الآيات التي تشير إلى تعلّق الإرادة الإلهية بالإيمان الديني و تعميقهن و يهمل العديد من الآيات الأخرى التي تشير إلى تعلق الإرادة الإلهية بالأفعال البشرية في مجال الكفر والإيمان.

الكلمات المفتاحية: تعميق الإيمان الديني، تضعيف الكفر، عبد الجبار المعتزلي، الإنسان، القرآن.

Abstract:-

Judge Abdul Jabbar Hamadani believes that faith, in addition to affirmation, also includes its practical means of performing the obligatory and forbidding confidentiality and accepting religious faith on the one hand and its deepening, on the other hand, is done by independent human will. So from the point of view of this Mu'tazilite thinker, religious faith has deepened and man can deepen it at will. Abdul Jabar offers numerous Qur'anic arguments to prove his theory that It can be criticized in many ways. The common fallacy of all these arguments is the incomplete induction of Qur'anic verses. Because he merely argues in a series of verses that indicate that the divine will belongs to the religious faith and deepens it and he neglects numerous other verses which show that divine will belongs to human actions in the field of infidelity and faith.

Keywords: Deepening Religious Faith, Weakening of Unbelief, Abdul Jabar Motazli, Man, Quran.

المقدمة:

أحد القضايا الأساسية في تفسير كلام القرآن الكريم هو شرح حقيقة الإيمان و المواضيع المتعلقة به. هناك آيات عديدة تتحدث عن الإيمان ودوره في سعادة البشر، و تحثّ الناس على قبوله. السؤال هو(١)، ما حقيقة الإيمان؟(٢) هل حصل الإيمان لدى البشر بالجبر الإلهي أم أنه أمر اختياري؟(٣) الإجابة على هذين السؤالين يحدد مسالة أخرى من المسائل الخلافية حول الإيمان الديني، وهو هل يمكن تعميق الإيمان الديني؟ أو أنه أمر متساوي لدى جميع البشر؟ في حال قبول إمكانية تعميق الإيمان الديني، فإن تضعيفه سيكون ممكناً أيضاً. لأنّ إثبات تعميق قبول الإيمان يستلزم قبول تضعيفه.

يعتقد متكلموا الأشاعرة و مفسريهم أن الإيمان تصديق قلبي (الآمدي، ١٤٢٣، ج٥، ص٧) و يتحقق في البشر من خلال الجبر الإلهي (الرازي، ١٤٢٠، ج١، ص٤٠). لذلك هي حقيقة واحدة غير قابلة للزيادة والنقصان. لأن التصديق القلبي أمر واحد (الرازي، ١٤١١، ص٥٧٠- ٥٧١) ومن جهة أخرى لا يمكن تعميق الإيمان بسبب أنه غير اختياري. بموجب نظرية الأشاعرة " المؤمن يمكن أن يكون متديناً فقط والكافر اختار الكفر أيضاً")عبدالجبار، ١٤٢٢، ص١٩٢). لهذا السبب فإن إيمان البشر لا يضعف أيضاً. لذلك فإن زيادة أو نقص الإيمان لا معنى له في نظرية الجبر الأشعري.

القاضي عبد الجبار الهمداني واحد من أعظم مفسري و متكلمي المعتزلة الذين لعبوا دوراً كبيراً في تدوين و نشر و تعميق مبادئ الكلام لدى المعتزلة. لدرجة أنّ كتبه تعتبر من المصادر الرئيسية لمدرسة المعتزلة و فهم الأسس الفكرية والتفسيرية لهم.

من منظور عبد الجبار فإن حقيقة الإيمان عبارة عن القيام بالطاعات الإلهية (= واجبات ومستحبات) وترك المحرمات(عبدالجبار، ١٤٢٢، ص٢٤٧). من جهة أخرى وبحسب رأي هذا المفكر المعتزلي فإنّ الإيمان أو الكفر يحصل بإرادة و اختيار البشر و ليس بالجبر الإلهي (عبدالجبار، بلا تاريخ، ص١٠٥). لذلك فإن الإيمان له قابلية الزيادة و النقصان أو التعميق و التقليل. لأنه من الممكن لمؤمن أن يقوم بإرادته و اختياره بطاعات أكثر و يرتكب محرمات أقل (عبدالجبار، ١٤٢٢، ص٥٤٤).

من وجهة نظر القاضي عبدالجبار فإن الآيات والروايات صريحة في ازدياد(=تعميق) أو نقصان(=تضعيف) الايمان (عبدالجبار، ١٤٢٢، ص٤٥٢) و هو منوط بكون الإيمان اختياري. إن حجج عبد الجبار في إثبات كون تعميق الإيمان الديني إرادي يمكن مناقشتها في أقسام كثيرة حيث سنقوم بالتطرق إليها في هذه الدراسة.

الفاعلية الإستقلالية للإنسان بالنسبة للإيمان و تعميقه:

مجموعة من حجج عبد الجبار في إثبات قابلية تعميق الإيمان الديني و كونه إرادي من حيث فاعلية استقلال الإنسان بالنسبة إلى الإيمان أو الكفر حيث سيأتي شرحها في هذا القسم كما يلي:

(١) في حال كان الإيمان من عند الله و حصل بإختياره، فسيصبح سبباً مانعاً لإيمان المكلّف، وبسبب ذلك لا يستطيع ذلك الشخص تطبيق إرادته، ولذلك فإنه يختار الإيمان أو الكفر. تماماً كالشخص الذي يقوم شخص آخر بوضعه في سجن مظلم و يعاتبه قائلاً لماذا لا تخرج من مثل هذا المكان: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ (الإسراء: ٩٤) (عبد الجبارن ١٤٢٢، ص٢٤٢). فكما تثبت الآية أن الناس مخيّرون في الإيمان، فإنها تبيّن أيضاً قابلية قبول تعميق الإيمان. لأنه و بموجب هذه الآية لا يوجد مانع في ازدياد أو تعميق الإيمان، و يمكن للشخص أن يقوم بإرادته بتعميق إيمانه الديني.

(٢) يبيّن الله في آيات من القرآن أنه في حال إجبار البشر و إكراههم على الإيمان، فإن الجميع سيصبحوا مؤمنين. ولكن أوكل ذلك الشيء إلى إرادة البشر و اختيارهم، ليكونوا مستحقين للثواب و الأجر الإلهي في حال متلاك الإرادة الطيبة، و مستحقين للعذاب في حال الكفر ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩)(عبدالجبار، ١٤٢٢، ص٣١٩). فكما أنه لا يوجد إكراه في إيمان الإنسان، فإنه لا مانع من ازدياد إيمانه و تعميقه.

(٣) اعتبر الله سبحانه وتعالى في آيات من القرآن الكريم، أن إيمان الناس و ما يتعلق بذلك من أعمال مثل إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة، هي من أفعال الإنسان ومتعلقة بإرادته: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣)(عبدالجبار، ١٤٢٦، ج١١،

ص٣٥). هذا المطلب إضافة إلى أنه يبطل جبر الإيمان، فإنه يثبت إمكانية تعميقه أو إضعافه. لأنّ كيفية القيام بمتعلقات الإيمان ليست واحدة لدى جميع الأشخاص، و القيام بمعظمها (بجودة أفضل) يؤدي إلى تعميق الإيمان الديني. يؤكد هذه النقطة آيات من القرآن التي اعتبرت أن الكفر ناتج عن إرادة الإنسان، بحيث أنّ الكافرين لن يؤمنوا أبداً، وأنهم يمتنعون عن قبول الإيمان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(البقرة: ٦)(عبدالجبار، بلا تاريخ، صص٤٩-٥٠). بعبارة أخرى فإن الكافرين باختيارهم و إرادتهم قاموا بإضعاف إيمانهم بطريقة أدّت إلى الكفر الإلحاد.

(٤) وصف الله في آيات من القرآن الإيمان و الكفر بأنه ناتج صراحة عن إرادة الإنسان: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩). هذه الآية صريحة بأن الله يضع الكفر والإيمان بين يدي الإنسان (عبدالجبار، ١٤٢٢، ص٢٤٣). وعليه فإن الله قد ربط ازدياد الإيمام و تعميقه بإرادة الإنسان. كما توضح الآية ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (التكوير: ٢٨-٢٩) أنّ الله يشاء القيام بالفعل الذي يريد الإنسان أن يقوم به. وبسبب عدم تخصيص هذه الآية و كونها مطلقة، فإن إرادة الإنسان تشمل الإيمان و الكفر وتعميقه أو تضعيفه (عبدالجبار، ١٩٦٢، ج٦، ص٣١١).

نقد الفاعلية الاستقلالية للإنسان بالنسبة للإيمان و تعميقه:

كانت نتيجة حجج عبدالجبار المعتزلي في القسم السابق، هي أنه بسبب اختيار الإيمان أو الكفر، وإن من أركان الإيمان سماته العملية، فإن تعميق الإيمان الديني أو إضعافه مرتبط بإرادة الإنسان وليس بسبب الإرادة الإلهية. بعبارة أخرى،، وعلى عكس وجهة نظر الأشعريين فإن الإيمان الديني وتعميقه في البشر، لا يعتمد على إرادة الله أبداً، و الإنسان فاعل مستقل في هذا الصدد.

واجهت استدلالات عبد الجبار في هذا القسم حالات نقض من الآيات القرآنية التي اعتُبر فيها هداية أو ضلال البشر منوط بالإرادة الإلهية: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾(الأنعام: ٣٥). تدل هذه الآية على أن الله لم يشأ الإيمان أو تعميقه من الكافر، بل إنّ إرادة الله متعلقة ببقاء كفر الكافر (الرازي، ١٤٢٠، ج١٢، ص ٥٢١). كذلك؛ ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ

أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ (الأنعام:١٢٥) و ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ (هود: ٣٤) تدل هذه الآيات على أنّ هداية البشر وضلالهم، وكذلك تعميق الإيمان أو إضعافه فيهم يحصل بالجبر الإلهي (التفتازاني، ١٤٠٩، ج٤، ص٢٧٦).

في هذا الصدد فإن هاتين المجموعتين من الآيات تتناقض مع بعضها البعض، ومن أجل حل هذا التناقض، والجمع بين الآيات المتناقضة في ظاهرها، لابدّ من القول أنّ الإرادة الإلهية و إرادة البشر تتعلقان بالإيمان وتعميقه، وإثبات أحدهما لا ينفي الآخر. وهذا ما يعبّر عنه في روايات الشيعة بأنه "الأمر بين الأمرين". وهذا يعني أنّ نظرية الجبر تتناقض مع العدالة و الحكمة الإلهية (بسبب بطلان الأمر والنهي بالنسبة للمكلف فاقد الإرادة)ن من ناحية أخرى فإن الفاعلية المستقلة للإنسان في أفعاله، بما في ذلك الإيمان و تفويض ذلك لله عز وجل لا تتفق مع ذلك. (الكليني، ١٤٠٧، ج١، ص١٥٧): ﴿وَاللَّهُ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي سُلْطَانِهِ مَا لَا يُرِيدُ﴾)(ابن بابويه، ١٣٩٨، ص٣٦٠).[1] لأنّ مثل هذه النظرية تستلزم تحقق شركاء بلا نهاية لله وفاعليته بسبب استغناء الإنسان في أفعاله عن الله، بما في ذلك الإيمان و تعميقه (الملاصدرا، ١٣٨٣، ج٤، ص ٢٩١). بعبارة أخرى تتطلب هذه النظرية وجود فاعلين مستقلين عن الله.

في النتيجة فإن تعلق الإرادة البشرية بفعل الإيمان وتعميقه في بعض الآيات، لا يستلزم استغناء الإنسان عن الله في مثل هكذا أمور، بل هناك علاقة ثنائية الاتجاه في هذا المجال. فالإنسان في وجوده، أفعاله وصفاته بما في ذلك الإرادة التابعة لله والمحتاجة له، والتي آمن بواسطتهان يمكنه من خلالها تعميق إيمانه الديني أو إضعافه.

تنزيه الله عن نقائص الأفعال البشرية وإضعاف إيمانه:

تشير بعض الآيات القرآنية إلى تنزيه الله عن الصفات المعيبة والقبيحة مثل كفر البشر، والتي استخدمها عبدالجبار المعتزلي لشرح و إثبات نظريته حول طوعية تعميق الإيمان الديني:

(١) آيه ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة:٧) تدل على أن الله تعالى يقوم بالأفعال الحسنة فقطن ولا يمكن نسبة الأمور القبيحة له. فالأفعال البشرية القبيحة ناتجة عن أنفسهم لا أنها تحدث بجبر الله (عبدالجبار، ١٤٢٦، ص ١٣٤). وعلى ذلك فإن الإنسان بإرادته يقوم بالأمور القبيحة مثل الكفر الذي يسبب إضعاف إيمانه الديني. على الضفة المقابلة فإن الإيمان الديني أمرٌ يقبل التعميق، و تعميقه متعلق بإرادة الإنسان.

(٢) ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة:٧٠): في حال كان الله هو فاعل الظلم في البشر، فسيكون ظالماً. بينما هذه الآية تنفي عن الله ظلم البشر، وتصفهم بأنهم هم الظالمون. لذلك فإن الإنسان فاعل فعل باسم الظلم، بحيث يسبب إضعاف الإيمان الديني فيه (عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٩٤). في المقابل فإن الله تعالى في الآية التالية للآية التي نتحدث عنها، ينسب أفعالاً مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة (التوبة: ٧١) للإنسان المؤمن التي هي سبب لتعميق الإيمان الديني لديه (عبدالجبار، ١٤٢٦، ص١٦٨). بعبارة أخرى فإن طوعية مثل هذه الأمور سبب لتعميق الإيمان الديني لدى البشر.

وفي هذا السياق فإن الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس:٤٤) تبيّن انحراف الكفار عن الإيمان الديني، ولذلك فإن إضعافه لم يكن بسبب جبر الله. لأنه في حال كان فعل الكفر جبري فإن الله سيكون ظالماً بالنسبة لهم. بينما تنفي الآية مثل هذا الموضوع، وتنزّه الله عن ارتكاب الظلم بالنسبة للإنسان (عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٣٥١). الآيه ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(ق:٢٩) تدل على هذا الموضوع أيضاً(عبدالجبار، ١٤٢٦، ص٣٩٨).

(٣) آيات من القرآن تدل على أنّ الله لا يكلّف الإنسان القيام بعمل أكثر من طاقته، إذا لم يكن الإنسان فاعل أفعاله، فإنّ تكليفه ببعض الأمور، سيكون أكبر من طاقته. لأنه إذا كانت أفعال الإنسان جبرية وتتم بإرادة الله، فلن يكون الإنسان قادراً على القيام بالفعل مرة ثانية (بسبب استحالة تحصيل الحاصل) أو تركه (بسبب أن قدرة الله أشد من الإنسان) ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(المؤمنون:٦٢) (عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٥١٦). كذلك الآية ﴿لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة:١٨٥) تؤيد هذا المعنى. لأنّ تكليف "ما لا يطاق" و خارج عن

قدرة و إرادة البشر، تستلزم أشدّ العسر والمشقة بالنسبة للبشر (عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٤٣). الآية ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨) تدل على هذا الأمر. لأنّ أشدّ الحرج أن يثكلّف الإنسان بما لا يستطيع القيام به (عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٥١٤).

(٤) يبيّن الله في آيات من القرآن أنّ إرادته لا تتعلق بأفعال العباد، حتى أن هناك كراهة بالنسبة لبعضها: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾(الإسراء: ٣٨). فالمكروه لا يتعلق بالإرادة الإلهية. لأنّه يستلزم اجتماع الضدّان (= الإرادة والكراهة) (عبدالجبار، ١٩٦٢، ج٦، ص٢٤٩). لذلك فإن الإنسان فاعل إرادي لأفعاله مثل الكفر الذي يسبب إضعاف الإيمان الديني.

(٥) الآية ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١١٢) تدلّ على أنّه إذا كان الله فاعل بالنسبة لأفعال العباد، ومن ثم قام بمعاقبتهم فليس ذلك صحيح. لأنه إذا ارتكب شخص ذنباً، ثم اتُّهم به شخص آخر، فإنه يكون قد ارتكب ذنباً كبيراً. وعليه في حال كان الله فاعل أفعال العباد، فإنه إذا قام بعقابهم على ما فعلوه، يكون قد ارتكب خطأ و غلطاً كبيراً (عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٢٠٤). الآية ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣) في هذا السياق أيضاً(عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٢٠٥-٢٠٤) بأنّ كل شخص يرى جزاء أعماله. في النتيجة وبسبب القيام بالذنب والخطأ بشكل إرادي مثل الكفر أو إضعاف الإيمان، فإن الله يعاقبهم على القيام بذلك.

نقد إثبات إرادية تعميق الإيمان الديني من جهة تنزيه الله عن النقائص البشرية:

في القسم السابق تطرق عبد الجبار بالاستفادة من حسن جميع أفعال الله و تنزيهه عن نقائص أفعال البشر مثل الكفر وإضعاف الإيمان لإثبات إرادية تعميق الإيمان. لأنّ الله لا يقوم بفعل قبيح. وعليه فإن السؤال هو هل تنزيه الله عن نقائص الأفعال البشرية يستلزم الإرادة المستقلة للإنسان عن الله.

يبدو أنّ مدّعى عبدالجبار المعتزلي ينتقض بآيات من القرآن: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ (يونس:١٠٧). بحسب هذه الآية، فإن جميع

الخـيرات والشـرور تتحقـق بـإرادة الله (الـرازي، ١٤٢٠، ج١٧، ص٣٠٩) ولا فـرق في معلوليتهما بالنسبة لإرادة الله. وعليه فإن حجج عبد الجبار في هذا القسم تتعارض جوهرياً مع الآيات القرآنية الأخرى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(الزمر: ٦٢). لذلك إذا كانت بعض الأشياء أو الموجودات مثل الكفر وضعف الإيمان الديني لا تتعلق بإرادة الله، فالله لن يكون كلي القدرة ولا تشمل جميع الكائنات. وهو موضوع يتناقض بشكل صريح مع آيات من القرآن. بالنظر إلى هذا الموضوع فقد جاء في أحاديث الشيعة: ((وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْخَيْرَ وَ الشَّرَّ بِغَيْرِ مَشِيئَةِ اللَّهِ فَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهَ مِنْ سُلْطَانِهِ وَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَعَاصِيَ بِغَيْرِ قُوَّةِ اللَّهِ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ.))(الكليني، ١٤٠٧، ج١، ص١٥٨). من الجدير بالذكر أنه وفق هذا الحديث الشريف فإن اعتبار الإنسان مستقل في تصرفاته بما في ذلك الإيمان وتعميقه، يستلزم الخروج عن دائرة الإيمان و الدخول في الجحيم.

وفقاً لما تقدّم، فإن الإرادة و القدرة الإلهية تشمل جميع المخلوقات بما في ذلك الإيمان وتعميقه، والكفر أو إضعافه، لكنّ الإنسان يفعل ذلك بإرادته مباشرة، دون واسطة، بحيث لا يكون هناك حاجة للجبر. لذلك فقد اعتبرت الأحاديث الشيعية ضمن إبطال الجبر والتفويض، أن القيام بالأعمال البشرية تتم بلطف و رحمة الله. (الكلينى، ١٤٠٧، ج١، ص١٥٩).

ندامة وحسرة الكافرين لعدم امتلاكهم الإيمان الديني في الآخرة:

بعض الآيات القرآنية تبيّن حسرة و ندامة الكافرين لعدم امتلاكهم الإيمان، والقيام بأعمال منافية للإيمان و تعميقه، حيث استخدمها عبد الجبار المعتزلي لإثبات قابلية تعميق الإيمان الديني بشكل إرادي:

(١) بحسب آيات من القرآن، عندما يأتي الموت الإنسان الكافر فإنه يطلب الرجوع و العودة إلى الدنيا ليقوم بأعمال صالحة ولائقة : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾(المؤمنون: ٩٩-١٠٠). هذا الأمر يدل على أنّ زيادة و تعميق الإيمان الديني لدى البشر مرتبط و منوط بإرادته. في حال كان فعل الإيمان أو الكفر، وبالتالي زيادة هذا الأمر أو إضعافه جبري وغير إرادي، فإن مثل هذا الطلب أو التمنّي لا معنى له

(عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٥٢٠). لذلك يطلب الكافرون العودة إلى الدنيا ليؤمن بإرادته ويعمّق إيمانه.

(٢) بحسب آيات من القرآن، عندما يرى المشركون عذاب الله يؤمنون. مع ذلك فإن هذا الإيمان لا ينفعهم شيء: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾(غافر: ٨٤-٨٥). تصرّح هذه الآية أنّ المشركين أنفسهم كانوا سبب شركهم، وأنهم آمنوا عند رؤية العذاب. في النتيجة فإن فاعل الإيمان أو الشرك هو الإنسان نفسه، ومن الممكن بإرادته أن يعمّق إيمانه الديني و يزيده، أو يقوم بإضعافه بحيث يؤدي حتى إلى الشرك (الكفر). في حال كان الإيمان أو الشرك جبري، فلن يكون قابلاً للتعميق أو الإضعاف، عندها لن يهتم المشركون عند رؤية العذاب أو قبله. (عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٦٠١). من ناحية أخرى فإنّ هذه الآية تدل على أنّ الإيمان في حال الاضطرار هو إيمان أيضاً على الرغم أنه بلا فائدة (عبدالجبار، ١٩٦٢، ج٦، ص٢٦٥). لهذا السبب للإيمان مراتب مختلفة من العمق، وأضعفها الإيمان الأخروي عديم الفائدة والجدوى.

(٣) في آيات من القرآن يتهرب المشركون أو الكافرون من أفعالهم و أعمالهم التي سببت إضعاف إيمانهم، و يتحسّرون على فعل ذلك: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾(الفرقان: ٢٨-٢٩). تدل هذه الآية على أنّ الإنسان بإرادته واختياره لم يختر أصدقاءاً جيدين، لذلك انحرف عن طريق الإيمان و تعميقه (عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٢٩٠) بحيث أصبح مستحقاً للعذاب و العقوبة الإلهية.

نقد إثبات طواعية تعميق الإيمان الديني من ندم و حسرة الكافرين في الآخرة:

الآيات التي استشهد بها عبدالجبار في القسم السابق تُظهر نوعاً من حسرة و ندامة الكافرين بسبب افتقارهم للإيمان الديني وعدم تعميقه. السؤال الآن هو هل مثل هذا الموضوع يثبت المدّعى الذي يقصده هذا المفكر المعتزلي حول إرادة الإنسان المستقلة للإيمان وتعميقه؟

تشير الآيات القرآنية إلى المؤمنين و المهتدين و أنّ هدايتهم كانت بسبب الإرادة الإلهية، وفي حال عدم وجود تلك الإرادة، فإنّ هدايتهم تنتفي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ

﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾(المؤمنون: ١٠٦). لذلك فإن طلب و إرادة الهداية (الإيمان الديني وتعميقه) ليست ممكنة دون إرادة الله. من ناحية أخرى ينقل القرآن عن قول الشيطان أنه يعتبر ضلاله و غوايته من عند الله : ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ (الحجر: ٣٩). لذلك فإن الهداية والضلالة غير ممكنة دون إرادة الله، والإنسان ليس مستقل في إيمانه أو كفره بنابراين هدايت يا ضلالت بدون اراده الهي ممكن نيست و انسان مستقل در ايمان يا كفر خويش نمي باشد: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(انعام:٣٩). با نظر به مطلب فوق، در روايات شيعي اين آيه چنين تفسير شده است: ((إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى يُضِلُّ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ دَارِ كَرَامَتِهِ وَ يَهْدِي أَهْلَ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَى جَنَّتِهِ.))(ابن بابويه، ١٣٩٨، ص٢٤١). هم چنين در آياتي از قرآن دليل حرمان كافران از نعمت هاي بهشتي، اراده الهي دانسته شده است: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(اعراف:٥٠).

مقتضاي جمع لفظي ميان اين گونه آيات و آيات مورد استدلال عبدالجبار معتزلي اين است كه اراده الهي و اراده انساني هر دو به فعل ايمان، كفر و تعميق يا تضعيف آنها تعلق مي گيرد. اين معني در روايات شيعي مورد تأكيد بسياري قرار گرفته است: ((قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ يَا ابْنَ آدَمَ بِمَشِيئَتِي كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي تَشَاءُ وَ بِقُوَّتِي أَدَّيْتَ إِلَيَّ فَرَائِضِي وَ بِنِعْمَتِي قَوِيتَ عَلَى مَعْصِيَتِي.))(كلينى، ١٤٠٧، ج١، ص١٦٠). لأنّ إبطال الإرادة الإنسانية يؤدي إلى الجبر، وعدم تأثير الإرادة الإلهية في فعل الإيمان تؤدي إلى الشرك.

استعانة الإنسان بالله في تعميق الإيمان الديني:

بحسب الكثير من الآيات فإن الإنسان يستعين بالله في القيام بأفعاله، لاسيّما امتلاك الإيمان و تعميقه. بحسب رأي القاضي عبد الجبار فإن مثل هذا الأمر يدل على اختيارية الإيمان من جهة، وقابلية تعميقه من جهة أخرى. شرح استشهاد عبد الجبار في هذا القسم كما يلي:

(١) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة: ٥-٦): الإستعانة وطلب المساعدة من الله تدل على اختياري أفعال الإنسان خاصة الإيمان. لأنه في حال جبرية الإيمان فإن الإستعانة بالله من أجل تعميقه لا معنى له، لأن الإنسان ليس الفاعل الحقيقي للأفعال. لذلك فإن الإستعانة

بالله في الأمور الضرورية مثل لون البشرة و الصحة لا معنى له. لأنّ مثل هذه الأمور لا تتعلق بالإرادة. من جهة أخرى العبادات أفعال خاصة يتم القيام بها من أجل الخضوع و الخشوع تجاه الله مترافقة بالعلم، وهي من المتعلقات الضرورية للإيمان. ومن هنا فإن الإستعانة بالله على العلم بالقيام بمثل هذه الأفعال، لذلك فهو يدل على أنها اختيارية. كذلك تقديم المفعول في هاتين الآيتين يفيد الحصر، وهو بنفسه دليل على اختيارية الأفعال الإيمانية، لأنّ التخصيص ينطبق تماماً مع الإرادة (عبدالجبار، بلا تاريخ، صص٤١-٤٢) وليس بجبرية الإيمان أو تعليقه. فالإنسان بإرادته يعتبر الله جديراص بالعبادة، و يطلب منه المساعدة لتعميق الإيمان الديني.

(٢) ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(الفاتحة: ٦-٧): في هذه الآيات يطلب الإنسان من الله أن يهديه إلى الصراط المستقيم، والسبب في ذلك أن الإنسان فاعل لأفعاله في مجال الهداية أو الضلال. لأنه في حال كان الإيمان جبري، فإن مثل هذا الطلب لا معنى له (عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٤٣). من جهة أخرى فإن الإنسان يطلب من الله في هذه الآيات أن يهديه صراط آمنوا وقاموا بالطاعات الإلهية (= يقومون بتعميق الإيمان الديني)(عبدالجبار، بلا تاريخ، ص٤٦-٤٧). هذا الأمر يدل على أنّ الإيمان قابل للتعميق و الازديادز لأنّ عبارة " صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" تدل على أنّ هناك مرتبة عالية في الإيمان يمكن للإنسان الاقتراب منها والوصول إليها من خلال تعميق إيمانه الديني.

(٣) آيات يستعيذ بها الإنسان من وسوسة الشيطان و يطلب منه العون؛ كما تدل على تعميق الإيمان الديني: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(النحل: ٩٨). لذلك فالإنسان قادر على القيام بالإيمان، وبالتالي على تعميقه أو ازدياده، ولكنه بحاجة للعون و المساعدة الإلهية في القيام بذلك.

(٤) في آيات من القرآن يأمر الله البشر بالتعاون فيما بينهم على أمور البر والقيام بالطاعات، وتجنّب التعاون على الإثم والعدوان: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة: ٢). لذلك فالإنسان فاعل إرادي لأفعاله، وبإرادته يمكنه مساعدة الآخرين على تعميق الإيمان أو إضعافه (الرازي، ١٤٠٧، ج٩، ص٣١٣).

نقد إثبات إرادية تعميق الإيمان الديني من حيث استعانة الإنسان بالله:

في القسم السابق تم تبيين استشهاد عبدالجبار في إثبات إرادية تعميق الإيمان الديني من حيث استعانة الإنسان بالله في الإيمان وتعميقه. أساس هذا الاستشهاد أنّ الإنسان فاعل مستقل و يمتلك إرادة، والإستعانة بالله وطلب المساعدة منه دون هذا الأمر لا معنى له.

أن يستعين الإنسان بالله في أهم أموره، دليل على حاجة الإنسان و ارتباطه في أفعاله بالله، خاصة الإيمان وتعميقه. لأنه في عدم الحاجة لله ستكون الإستعانة به بلات معنى. وبهذا السياق، فإن طلب الإنسان الاستعانة بالله في تعميق الإيمان، يعني الهداية إلى الصراط المستقيم و الثبات عليه، يثبت حاجته إلى الله في مثل هذه الأمور. في الآيات التي يستعيذ بها الإنسان بالله من وسوسة الشيطان، تظهر أيضاً تبعية الإنسان لله وعدم استقلاله في الإيمان والكفر (وكذلك تعميق الإيمان أو إضعافه).

في الأقسام السابقة قيل أن الإنسان يعتمد على الله في جوهره وصفاته و أفعاله. وبموجب هذا المعنى، فالإنسان ليس مستقلاً عن الله في الإيمان الديني و تعميقه. وبالتالي، يحتاج الإنسان إلى أيضا إلى الله في الأعمال الحسنة والتقوى، أو الذنب و العداوة، وهما على التوالي من المتعلقات العملية للإيمان والكفر.

استحقاق مدح الإنسان في تعميق الإيمان و مذمة إضعافه:

تعبّر بعض الآيات القرآنية عن مدح الإنسان والثناء عليه لامتلاكه الإيمان و تعميقه، وفي المقابل فإن انعدام الإيمان أو إضعافه يستحق الذمّ، وهذه الآيات هي من الموارد الأخرى لاستشهاد عبد الجبار في إثبات إرادية تعميق الإيمان الديني:

(١) عاتب الله البشر في آيات من القرآن الكريم، وأنّبهم لأنهم لم يؤمنوا به: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ٧٩) و ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (الحديد: ٨). فلو كان قبول الإيمان جبري (و لذلك غير قابل للتعميق)، فسيكون مثل هذا التأنيب والعتاب لا معنى له (عبدالجبار، ١٤٢٢، ص٢٤٣). لذلك وبسبب الطبيعة الإختيارية للإيمان، يمكن للإنسان أن يعمّقها أو يضعّفها بإرادته. بنفس الميزان فإن الله يوبّخ الإنسان ويعزو الإيمان و الكفر لإرادته: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ (التغابن: ٢). فلو كان الإيمان

أو الكفر غير إراديان، فإن التأنيب في هذا المعنى لن يكون صحيحاً (عبدالجبار، ١٤٢٢، ص٢٤٣).

(٢) في بعض الآيات يمدح الله الإنسان بسبب قيامه بأفعال حسنة، و في المقابل يذمّ من يقوم بأفعال قبيحة: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ﴾ (الأنعام: ١٦٠). مثل هذا الترغيب هو أكثر من مبدأ الثواب على الأفعال البشرية الذي يعطيه الله للمؤمنين من فضله، بمن أن يكون ترغيباً في الطاعات الإلهية و بواسطة ذلك يعمقون إيمانهم الديني. (عبدالجبار، ١٤٢٦، ص١٤٠). لأنه كما تبيّن فإن القيام بالطاعات و تجنّب المحرمات هو القسم الأساسي في الإيمان برأي المعتزلة و القاضي عبد الجبار الهمداني.

نقد إثبات كون تعميق الإيمان الديني إرادي من جهة تعلق المدح أو الذم بأفعال الإنسان:

أساس استدلالات عبد الجبار المعتزلي في القسم السابق من جهة تعلق المدح بفعل الإيمان و تعميقه، و تعلق ذم الإنسان بفعل الكفر و إضعاف الإيمان.

في نقد هذا الموضوع يجب القول أنّ: لا شكّ أنّ الإنسان موجود ذو إرادة، و يمكنه بإرادته أن يختار واحداً من الإيمان و الكفر. بعبارة أخرى الإنسان فاعل مباشر وبلا واسطة لهذه الأمور. و لكن المسألة هي أن هذا الموضوع لا يؤدي إلى تعلّق الإرادة الإلهية بأفعال الإنسان. تماماً كما أن وجود الإنسان معلول، فإن صفاته بما في ذلك الإختيار بحاجة إلى الله أيضاً. بعبارة أخرى، الوجود و الإرادة البشرية تقع في طول الإرادة الإلهية(طباطبائي،١٤٢٤، ج٢، ص ٢٦٧). لهذا السبب فإن تعلق المدح و الذم القرآني بأفعال الإنسان فيما يخص الإيمان أو الكفر، لا يتنافى مع تعلّق الإرادة الإلهية بها. بهذا المعنى؛ تم التصريح في بعض روايات الشيعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَعَلِمَ مَا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ وَأَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ فَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ جَعَلَ لَهُمُ السَّبِيلَ إِلَى تَرْكِهِ وَلَا يَكُونُونَ آخِذِينَ وَلَا تَارِكِينَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (الكليني، ١٤٠٧، ج١، ص١٥٨). بموجب هذا الحديث الشريف فإن القيام بفعل مثل تعميق الإيمانم الديني، أو ترك القيام بفعل مثل إضعاف الإيمان يكون ممكناً فقط بإرادة الله وإذنه.

الجدير بالذكر أنّ بعض آيات القرآن تعتبر كفر البشر ناتج عن إرادة الله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يس: ٧) و ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾

(يس: ٨). الآيه السابقة (يس: ٧) توضح عدم إيمانهم و الآية التالية (يس: ٨) تعتبر علّة ذلك جعل وإيجاد الله (الرازي، ١٤٢٠، ج٢٦، ص٢٥٤). هذه الآيات تتعارض مع أدلة عبد الجبار في هذا القسم وتنقضها.

النتيجة:

من وجهة نظر القاضي عبد الجبار المعتزلي، فإن الإيمان الديني عبارة عن التصديق، والقيام بالواجبات و ترك المحرمات. من جهة أخرى وعلى عكس الأشاعرة فإنه يعتبر الإيمان أمراً اختيارياً، حيس يستطيع الإنسان بإرادته الحرة و المستقلة الإختيار بين الإيمان و الكفر. ونظراً لهاتين النقطتين، فإن الإيمان الديني من وجهة نظر عبد الجبار هو أمر قابل للتعميق أو الإضعاف. لأن الإنسان بإرادته يقوم بأفعال أكثر أو أقل.

أقام عبد الجبار أدلة قرآنية كثيرة على إثبات نظريته، و جميعها تدل على تعلّق إرادة الإنسان بأفعال الإيمان و الكفر، و بالتالي تعميقه و إضعافه. في المقابل أهمل عبد الجبار الكثير من الآيات القرآنية التي تدل على تعلّق الإرادة الإلهية بالإيمان أو الكفرز بالإستفادة من الجمع الفظي بين هاتين المجموعتين من الآيات، يمكن القول أنّ الإرادة الإلهية والإنسانية كلاهما يتعلقان بالإيمان أو الكفر و تعميقهما أو إضعافهما، و على ذلك يعبّر عن هذا الموضوع في روايات الشيعة بعنوان "الأمر بين الأمرين".

هوامش البحث

(١) من منظور القرآن الكريم فإن البشر وجميع الموجودات في ذاتها وصفاتها و أفعالها محتاجة و فقيرة لله، ولا معنى لاستقلالها في الأفعال: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد﴾(فاطر:١٥) (الملاصدرا، ١٣٥٤، ص١٤٨).

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتدئ به القرآن الكريم

١. ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد، جامعة مدرسين، قم، ١٣٩٨.

٢. ابن حنبل، أحمد بن محمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦.

٣. تفتازاني، سعدالدين(١٤٠٩)، شرح المقاصد، تحقيق عبد الرحمن عميره، بيروت: عالم الكتب.

٤. طباطبائى، محمدحسين(١٤١٧). الميزان فى تفسير القرآن، قم: الإنتشارات الإسلامية لجامعة المدرسين.

٥. رازي، محمد ابن عمر، المطالب العاليه من العلم الالهي،(سقا أحمد حجازي)، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧.

٦. _____؛ التفسير الكبير؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠.

٧. _____؛ المحصل دار الرازي عمان ١٤١١

٨. عبد الجبار،ابو الحسن(بلا تاريخ)، متشابه القرآن، قاهره: مكتبة دارالتراث.

٩. _____(١٤٢٦)، تنزيه القرآن عن المطاعن، بيروت: دارالنهضة الحديثة.

١٠. _____(١٩٦٢)، المغني في أبواب التوحيد و العدل، تحقيق جورج قنواتى، القاهرة: الدار المصرية.

١١. _____(١٤٢٢)، شرح الأصول الخمسة، تحقيق أحمد بن حسين أبي هاشم، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٢. الزمخشرى محمود(١٤٠٧)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت، دار الكتاب العربي.

١٣. كلينى، محمد بن يعقوب، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٤٠٧.

١٤. ملاصدرا، محمد بن ابراهيم، شرح أصول الكافي، تصحيح محمد خواجوى، مؤسسه الدراسات والبحوث الإسلامية، طهران، ١٣٨٣.

١٥. _____ (١٣٥٤)، المبدأ و المعاد، تصحيح سيد جلال الدين آشتياني، طهران:جمعية الحكمة والفلسفة الإيرانية.